الفصل الثالث

المنظومات المجتمعية في بلدان الخليج العربية

تتميز بلدان الخليج بتضاريس جغرافية وسكانية متباينة. وتباين التضاريس هذه ونوعية التنمية التي نفذتها هذه البلدان نجم عنها تكوّن نمط من أنماط التجمعات البشرية ذات الثقافات المتعددة والمنظومات المجتمعية المختلفة.ويلقي هذا الفصل الضوء على هذه الأنماط السكانية التي أفرزتها التنمية الحجرية في هذه البلدان الريعية.

السعودية

التنظيم المجتمعي :

بعد قرون من العزلة أسهم عاملان غير متوقعين في تكوين المملكة العربية السعودية وجمع قبائلها المتنافرة الرعوية منها والمستقرة وسكان مدنها الآخرين في وحدة غير عادية مما وضع هذه البلاد الجديدة في خضم الشؤون العالمية. والعاملان هما قيادة الملك عبدالعزيز الفذة من عام 1902م وحتى وفاته في 1953م واكتشاف أكبر احتياطي بترول في العالم، ودون هذين العاملين ربما بقيت السعودية موطن لقبائل متفرقة متقاتلة وأحد أكثر المناطق تخلفاً في العالم العربي. وقد انبثقت قيادة الملك عبدالعزيز _ رحمه الله _ من فهمه العبقري لميكانيكية وعقلية المجتمع العربي، وإحساسه الذكي بتغير دور القوى الأوروبية في المنطقة، ومكانة ونسب أسرته اللذان مكّناه من الدمج بين سكان صحراء وسط شبه الجزيرة العربية ومدنها في أمة جديدة تدين له بالولاء . كما وفر له اكتشاف البترول الإمكانيات اللازمة لتأمين البلاد وتمكين ورثته من الاستمرار في الحكم بعده والبدء في تحول لم يكن يتخيله مؤسسها نفسه.

وحتى ظهور الملك عبدالعزيز في السنوات الأولى من القرن العشرين لم يتغير التنظيم الاجتماعي إلا قليلاً منذ مجيء الإسلام الذي نستطيع أن نصف ديناميكيته من قراءة أعمال مفكر القرن الرابع عشر ابن خلدون، فمن خلال الاستخدام الخلاق للرموز الدينية والقبلية استطاع الملك

عبدالعزيز أن يعالج السياسة القبلية التقليدية بحيث تمكن من تحويل ولاء هذه القبائل من الولاء لنفسها إلى ولاء له ولآل سعود من بعده.

وتركزت التغيرات الاجتماعية التي صاحبت تأسيس البلاد على رموز ومؤسسات أهلية وقطرية ولكنها واكبت الثورة البترولية وأدخلت المملكة في اتصال مع مؤثرات وأفكار جديدة بالكامل على شبه الجزيرة، ولم تعن الصناعة النفطية زيادة غير مسبوقة في الثورة والتكنولوجيا الغربية والممارسات التجارية فحسب بل أيضاً أدت إلى استقدام سكاناً كثيرين من العمال الأجانب يتحدثون مختلف اللغات ويعملون في جميع المهن والوظائف.

غير أن السعودية استطاعت بالرغم من ذلك المحافظة على سيطرتها الاجتماعية والسياسية وعلى أرث البلاد الثقافي، وركزت سياسة الحكومة على القيام بكل المجهودات ممكنة لحماية السكان من التأثيرات الأجنبية. وبالرغم من أن قابلية التحول الاجتماعي والمهني للسكان السعوديين أصبحت ممكنة لأول مرة منذ مجئ الإسلام إلا أنه لم يحدث تغيير اجتماعي عميق للقيم العربية – التي تمنح الأولوية للولاء العائلي والقبلي والديني.

وتعد المملكة العربية السعودية متجانسة فكرياً، باستثناء الفئات التي تنتمي إلى الحجيج الذين استقر كثير منهم وأحفادهم في منطقة مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويستثنى من هذا التجانس أيضاً الأقلية الشيعية التي تتواجد في المنطقة الشرقية . ولكن أكبر عدد من السكان ذوي الثقافة المميزة هم العمال الأجانب الذي يبلغ عددهم زهاء الأربعة ملايين ، ومن وجهة النظر السعودية هم سكان غير دائمين حيث أنهم متعاقدون فقط، وبغض النظر عن تلك الاستثناءات فاللغة العربية هي السائدة، وينتمي المسلمون السُنة من المواطنين إلى المذهب السلفي الوهابي.

وقد تسبب الدخل الكبير والمتزايد من عائدات البترول في نزوح أعداد كبيرة من السكان إلى المدن وإحداث تغيير اجتماعي، وبالرغم من ذلك فقد بقى الولاء القبلي والذي ظل لفترة طويلة أساس الحياة السياسية والاقتصادية لشبه الجزيرة القوة الفاعلة، واستمرت الحياة الاجتماعية في تركيبتها حول الامتداد العائلي والقبلي على أساس مجموعات من القرابة والنسب الواحد .

وبالنسبة لمضمون الوحدة الثقافية في مناطق المملكة، هناك اختلافات مهمة حوله. فمنطقة نجد التي ينتمي إليها الملك عبد العزيز كانت منطقة منعزلة حتى دخول القرن العشرين بسنوات، وعكس ذلك كانت منطقة الحجاز في غرب المملكة حيث توجد مكة المكرمة والمدينة المنورة التي لهما تاريخ حضاري عالمي طويل، وفي منطقة الجنوب الغربي تتفرد منطقة عسير في الطقس والبيئة، وهي منطقة معزولة وغير معروفة وجبلية يقطنها قرويون مستقرون غير رحل.

وتختلف المنطقة الشرقية ليس في سكانها الشيعة فقط بل أيضاً في كونها مركز الصناعة البترولية، وتقليدياً كانت منطقة فقيرة نسبياً، يعتمد اقتصادها على إمكانيات محدودة من زراعة النخيل في بعض الواحات، وعلى الصيد الساحلي والغوص لاستخراج اللؤلؤ، وكانت متأثرة سياسياً بنجد واقتصادياً بالحجاز، وكان تأثير الزيت رئيسياً، فقد جاء بأفواج من السعوديين من كل مكان، وعرب وأوروبيين وأمريكيين شماليين وآسيويين، وكان معظم القياديين الحكوميين ليسوا من السكان المحليين، وأصبحت الهوة بين الذين يعملون في صناعة الزيت وأولئك الذين استمروا في العمل الزراعي من السكان كبيرة، وتوجه كثير من السكان المحليين خاصة الشيعة للعمل في قطاع الزيت والأنشطة الاقتصادية الحديثة واستمروا في العيش في قراهم كما في السابق ويترحلون إلى مكان عملهم يومياً أو أسبوعياً.

وأبرز الاختلافات الإقليمية نجدها بين نجد والحجاز، فقد ظلت نجد مركز الحركة الوهابية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحكم آل سعود . وكانت العلاقات الاجتماعية مبنية أساساً على المساواة، وكان البدو الرحل والسكان من أحفاد المستوطنين مرتبطين معاً بطرق عديدة وتتسم علاقاتهم بالتكافل، وكانت هناك علاقات متداخلة بين البدو الرحل والمزارعين والتجار والحرفيين.

وكان الحجاز يختلف بأنه متقدم بكثير من الحضارة والثقافة، وكان مصدر الدخل الرئيس لمنطقة الحجاز وللمملكة بأسرها حتى عام 1950م، واستفادت كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة من التبرعات التي يقدمها المسلمون من جميع أنحاء العالم وكانت المدينتان المقدستان مركزين رئيسيين للدراسات والبحوث الإسلامية، وكانت مدينة جدة أهم مركز تجاري في المملكة دون منازع، وقد تمتع الحجاز بحكم ذاتي واسع خلال الحكم العثماني حيث كانت العشائر والعائلات المحلية التي تدعى أنها تتحدر من نسب النبي (صلى الله عليه وسلم) تحكم دون عوائق، وكانت العائلات التجارية مسيطرة في جدة والمدينة والطائف.

وحتى قبل الإسلام كان إقليم الحجاز مهماً للقوافل التجارية، كما استفاد التجار من أهمية مكة كمركز ديني قبل الإسلام، حيث تزخر المدينة وضواحيها بمختلف مزارات الآلهة المعبودة آنذاك. ولم يجد التجار صعوبة تذكر في توفير الطعام والأشياء الضرورية الأخرى للحجيج الذين يؤدون الفريضة، وبعكس نجد فإن الاستيطان الحضري في الحجاز اتجه للخضوع للعلاقات بين البدو الرحل وسكان المدن مما حتم على سكان المدن العمل المستمر على إقناع البدو الرحل بعدم الإغارة دون رحمة على الحجيج وأن يسمحوا بمرور القوافل بسلام .

ويوجد في مدن الحجاز الكبيرة عدد كبير من السكان الأجانب ينحدرون أساساً من الحجيج الذين لم يعودوا إلى أوطانهم واستوطنوا هم

وأحفادهم في مدن الحجاز. وتشكل الأسر ذات الجذور الهندية والاندنوسية نسبة كبيرة من السكان السعوديين في مكة المكرمة، كما يوجد الكثير من الأسر السعودية ذات الجذور التركية والآسيوية والسورية والمصرية في المدينة المنورة، أما بالنسبة لميناء جدة فإنه يوجد نسبة عالية من الخليط السكاني مع أعداد بارزة تنحدر جذورها من الإيرانيين واليمنيين بالإضافة إلى أفارقة وعرب آخرين . وعلى الرغم من الارتفاع الجنوني لدخل الزيت في السبعينات ونشأة الرياض كمركز إداري ومالي ظلت جدة قوة مهمة في الشؤون التجارية للمملكة، وأصبحت العائلات التجارية القديمة نشطة في كل أنحاء البلاد، وكان هناك ميل ونزعة عند الحجازيين لممارسة أعمال التجارة بينما فضل النجديون المناصب البيروقراطية والتكنوقراطية. وقد اهتم الملك فيصل (1964–1975م) بربط الحجاز ونجد معاً وتوثيق التكامل بينهما، وأدت هذه السياسة إلى تقليل أهمية التعصب الإقليمي، ولوحظ ازدياد المصاهرات الحجازية/النجدية الظاهرة التي كانت نادرة من قبل، ولكن بقي هناك شعور لدى الحجازيين بأن النجديين لا يتقاسمون الثروة البترولية معهم بالتساوي.

القبائل :

ظل الانتماء للقبيلة ظاهرة منتشرة في العلاقات الاجتماعية، ولا يوجد ضمن المواطنين السعوديين إلا قليلاً من العائلات من سكان المدن والتجار من أحفاد الأجانب الذين لا ينتمون إلى القبائل. وحتى في المنطقة الشرقية حيث توجد نسبة سكانية عالية من الشيعة لا يمثل أي عامل اجتماعي آخر دوراً يمكن أن تقارن أهميته بأهمية الهوية القبلية. وتشمل القبيلة فروعاً مقيمة وفروعاً بدوية رحل رعاة للإبل والضأن والماعز ومزارعين وقرويين وسكان مدن وتجار بالإضافة إلى عاملين في المهن الحديثة. ويؤثر الانتساب القبلي في التوظيف والعمل حتى في الشركات، وقد وضعت القبائل بصماتها في جغرافية شبه الجزيرة العربية، وكانت المدن مقسمة إلى أحياء على أساس الانتماء القبلي، كما عكست الإقامة في

الواحات الانتماء القبلي واستولت كل قبيلة من القبائل الرحل على جزء من تلك الواحات.

وظلت القبيلة هي الركيزة الأساس لتعريف الهوية الاجتماعية، ويخاطب أعضاء القبيلة بعضهم بعضاً مهما كانوا بعيدين عن بعضهم "بابن العم" المصطلح الذي يغطي الانتساب لكلا الوالدين، ويعد الانتماء القبلي أهم الحدود الاجتماعية والثقافية ويتم التعبير عنه باختلافات اللهجة واللبس والتصرفات غير الشفهية، ويمثل الولاء للقبيلة ووحدتها قيم اجتماعية مسلم بها ولا يجوز التفريط فيها .

وتاريخياً كانت كل نواحي التنظيم السياسي والحياة الاقتصادية يتم تنظيمها من قبل القبيلة، وبالرغم من أن نشأة الدولة المركزية قد قللت من السيطرة القبلية ،إلا أن القبائل نفسها ظلت محوراً مركزياً للهوية السياسية. واستمرت القيادات القبلية المعاصرة في أداء عمل مهم بين أفراد القبيلة والحكومة المركزية. والولاء للدولة ليس أمراً يرتبط بالوطنية أو بأي شعار للمواطنة بل هو ولاء لأسرة آل سعود الحاكمة والتي ترتبط بها معظم القبائل عن طريق المصاهرة، وينظر إلى العلاقة بين الحاكم والمحكومين في نفس الإطار التقليدي للعلاقة بين أمير القبيلة وأفرادها.

والروح القبلية تسيطر عليها المساواة، وعززت التنظيمات السياسية والاقتصادية التقليدية من نماذج المساواة، وينظر إلى رجال القبائل سواء المنتمين إلى رجال القبيلة أو العشيرة كرجال متساويين، ويتم توزيع الثروة بالتساوي نسبياً ولا يمكن أن تضمن الثروة لصاحبها موقعاً قيادياً أو سيطرة بأي حال من الأحوال.

ويحكم شيوخ القبائل أو الأمراء باتفاق الآراء والإجماع، ويكتسب الشيوخ قوتهم من قدرتهم على التوسط في النزاعات وإقناع نظرائهم لاتخاذ إجراء معين، والصفات التي يتطلبها موقعهم هي تفهم دقيق للشؤون القبلية وسمعة حسنة وتقديم نصائح جيدة وأن يكونوا من أهل الكرم والمروءة ،

والشيوخ في الأساس مُحكمين وتعكس عملية حل النزاعات روح المساواة في القبيلة، ولا يقود الشيوخ المناقشات ولكنهم يعرضون رأي كل شخص في مسألة معينة، والإجماع ضروري قبل اتخاذ الإجراء، إذ إن تمرير القرار بالقوة يعني تقويض سيطرة المرء الذي مرر القرار فالقواد مؤثرون طالما أنهم يلتزمون بآراء وتوقعات القبيلة.

واستمرار قيادة شيوخ القبائل وأمرائها تتطلب القدرة على التوسط في النزاعات وهو مجهود يتطلب مهارة بارعة واستمرارية الشيخ في سيطرته يعتمد بالكامل على قدرته على إقناع الآخرين بقبول النتائج التي فاوض حولها، فالشيخ أو الأمير يجب أن ينجز مهمته ولا يمكن أن يحافظ على موقعه إلا باستمراره في التوسط بفاعلية، وقدرته على معالجة الصراعات القبيلة الداخلية. والتعامل مع الحكومة المركزية نيابة عن رجال القبيلة تمثل محوراً مركزياً في مهام شيخ القبيلة أو أميرها ، ويجب أن يكون الأمير قادراً على مساعدة أي رجل من القبيلة ليكون بمقدوره التعامل مع تعقيدات البيروقراطية، وتمتد حدود خدمات شيخ القبيلة أو أميرها من مساعدة أحد رجال قبيلته لتسجيل شاحنة إلى مساعدته في الحصول على مختلف الإعانات الحكومية.

<u>الصحراء والأرض الخضراء</u> :

إذا كانت الحدود المادية بين المنطقة الصحراوية والمنطقة الزراعية تبدو حادة بصورة مدهشة في الشرق الأوسط إلا أننا نجد إن الحدود بين البدو الرحل والمزارعين المقيمين هي أقل حدة. فالبدو والمزارعون كل منهم يعتمد على الآخر في الحصول على البضائع والخدمات الهامة لمعيشتهم ويتقاسمون وحدة ثقافية جوهرية.. ويذيب الولاء القبلي الاختلافات في أسلوب المعيشة. وكثير من القبائل لديها فروع رحل وفروع مقيمة.. وبالرغم من أن الآداب والفنون الشعبية تمجد وجود المجموعات الرحل إلا أن معظم السكان – أصبحوا مستقرين غير رحل .

وفي السبعينات كان ثلث سكان شبه الجزيرة يعملون بالزراعة تقريباً، وكانت الممتلكات صغيرة بمتوسط ثماني هكتار للفرد وهكتار واحد من الأراضي المروية، وكان جزءاً كبيراً من الأراضي المملوكة تمتلكها وتشغلها بعض العائلات وبعضها الآخر يوكل أمر الأراضي زراعة وزراعتها إلى مزارعين آخرين ويتقاسمون معهم المحاصيل. وتقليدياً كان ذلك التنظيم يخلق مساواة بصورة عالية ومفيداً لكل الأطراف، وعندما تعقدت حقوق المياه شاع امتلاك الإقطاعيين الغائبين للأراضي في بعض المناطق، وبدأ هؤلاء الملاك بتشغيل عمال وأغلبهم من غير السعوديين بأجر. ومثلت ظاهرة ملوحة الأرض وزحف الرمال مشكلتان بذلت الحكومة مجهودات ضخمة لحلهما، ومع ذلك استمرت ظاهرة التشبه بالبدو الرحل من حيث رعي الإبل والضأن والماعز كنشاط اقتصادي يسهم في تحسين دخل الأسرة أسلوب مفضل يمارسه كثير من سكان المناطق الزراعية ، وطبقاً لبحث في السبعينات عن القصيم تفيد النتائج أن ثلث مزارعي النخيل قضوا وقت الشتاء – أي أشهر المرعى – في الصحراء مع قطعانهم، لأن زراعة النخيل والتي تعد أهم المحاصيل للمزارع تسمح بوقت كافٍ لعمل شيء آخر بعد التلقيح وقبل الحصاد.

وهناك استمرارية في الحياة المستقرة وحياة الترحل فمن ناحية هناك المزارعون والتجار المقيمون تماماً ومن ناحية أخرى هناك رعاة الإبل الذين ينتجون لاستهلاكهم الشخصي أساساً ولا يعملون بالأجر، وهناك من يقع بين الحدين النهائيين فالضأن والماعز أقل مسافة في هجرتها من الإبل، والبدو الأغنياء يكوّنون في إحدى الواحات فروعاً تمارس استثمارات زراعية وتجارية، ويتنقل أفراد البيت حسب تغير حالتهم المنزلية، فقد يقيم جزء من عائلة كبيرة لكي يسمح للأطفال بدخول المدرسة، بينما يرعى الآخرون قطعان العائلة، وتغيرهم يمثل ضماناً للظروف غير المؤكدة، كما أن تقلبات المناخ تؤثر في ذلك، فخلال الجفاف الحاد من الخمسينات المبكرة إلى

السبعينات انخفضت أعداد القطعان واستقر البدو الرحل باحثين عن أعمال بأجر أو مهن أخرى، وعندما تحسنت الظروف في الصحراء رجع الكثيرون إلى حياة الترحل.

وعند العرب الرحل هناك فرق بين رعاة الإبل ورعاة الضأن والماعز، فالإبل تتحمل فترات أطول بكثير دون ماء ولهذا فرعاة الإبل لديهم الفرصة في الرعي في مساحات أوسع بكثير من الرعاة الآخرين، وتقليدياً كانت القبائل التي ترعى الإبل هي الأقوى عسكرياً والأكثر تجوالاً، وحتى اليوم فدورة الهجرة السنوية لرعاة الإبل قد تكون على مدى 5.000 كيلومتر، أما الضأن والماعز فأكثر طلباً للماء ويهاجر رعاتهما إلى مسافات قصيرة ولديهم اتصالات أكبر بسكان الواحات.

وقد أثرت مختلف التغييرات في السبعينات على البدو الرحل، حيث التحق كثير من شبابهم بالعمل بأجر ، وينظر البدوي الشاب مثلاً للعمل في الحرس الوطني السعودي كمهمة قصيرة بديلة للحصول على رأس المال لزيادة قطيع العائلة، وبسبب نقص التعليم يتم عدم قبول البدو للعمل في كثير من الوظائف في القطاع الحديث بينما تقدم الخدمة العسكرية خياراً يتطابق مع القيم البدوية، ومن الخيارات المفضلة خدمات الشاحنات ووسيارات الأجرة والتجارة الصغيرة.

وازدادت أعداد الضأن والماعز التي يتم إنتاجها للبيع على حساب الإبل، فالإنفاق الأساس على الحيوانات الصغيرة أقل ويستطيع الرعاة استرجاع استثماراتهم بصورة أسرع، وأدت الزيادة في حفر الآبار العميقة وفي أعداد الشاحنات إلى تفضيل تربية قطعان الضأن والماعز فالرعاة يستطيعون حمل المياه بالشاحنة إلى قطعانهم مهما كان مكان الرعي بعيداً، وتزامن هذا الاتجاه مع الاستعمال المطلق للقبائل لأراضيهم مما أدى إلى رعي جائر في بعض المناطق، وأدى انخفاض تربية الإبل إلى قصر الهجرة

السنوية مما زاد من ساعات الفراغ في العائلات، وبدأت النساء في إنتاج سلع يدوية للبيع.

وبالرغم من ارتباطاتهم الوثيقة مع المزارعين إلا أن البدو الرحل كانوا يحتقرون الزراعة كمهنة، وعانت مستوطنات الأخوان في العشرينات من ازدرائهم وجهلهم بالزراعة ولم يكتفوا أبداً من إنتاج الطعام، وتم إنشاء العديد من مشاريع الري والإقامة الكبيرة منذ الخمسينات، إلا أن تلك المشاريع عانت من مشاكل التخطيط والتنفيذ والمستوى المنخفض لتوظيف البدو، وفي الثمانينات أدت قروض الحكومة للمزارعين إلى جعل الزراعة خيار جذاب مرة أخرى، وظل التزام البدو الرحل بالزراعة ضعيفاً، وكان آخرون ينظرون إلى الاستيطان كوسيلة لدخول الأطفال المدرسة، وكان كثير من أسر المزارعين يعتمدون على التحويلات التي ترد إليهم من أبنائهم العاملين في مكان آخر .

مجتمع المدن :

كانت المدن جزءاً من وسط شبه الجزيرة العربية منذ نشأة تجارة القوافل، وقبل القرن العشرين كانت المدن مراكز لتوقف القوافل للتسوق المحلي أو الإقليمي، وكان ربع السكان يعيشون في المدن، ومن النواحي الفيزيائية كانت جميع المدن تقريباً محاطة بأسوار من الجدران لحمايتها .وأدت الحاجة إلى الدفاع إلى تقليل مساحتها وتحديد فائدتها، وفي كل مدينة كان يوجد طريق عام يشق المدينة ويقود إلى مركزها وإلى مسجد والمدارس المصاحبة له، ولم يكن هناك مبان للإدارة المدنية وكانت المراقبة المحلية تقع في مختلف الأحياء السكنية وظل معظمها تحت سيطرة القبائل، وعلى جانب الشارع العام يصطف الحرفيون ويتم التبادل في الأسواق والمحلات التجارية المركزية حيث تقدم للبدو الزوار الكثير من البضائع والخدمات التي يعتمدون في توفيرها على سكان المدن.

وفي معظم المناطق كانت القبيلة والصنعة تحدد الأحياء السكنية، وكانت المنازل تبنى حول ساحة مركزية تساعد تلبية الحاجة العربية للخصوصية والعزلة الصحيحة للعائلات، وفي نفس الوقت تقي المنطقة من الحرارة والرياح القوية، وتوسيع الساحة أكثر من اللازم معناه فقدان الظل الذي توفره جدرانها، وكانت منازل الأسر الكبيرة متلاصقة كل منها حول ساحة منفصلة.

ونمت المدن في الستينات وأواخر السبعينات بصورة مذهلة، ولكن النمو خف في بداية الثمانينات بانخفاض الدخل من الزيت.

وحدث التوسع الحضري في ثلاث مجموعات من المدن جدة ومكة والطائف في الغرب، والدمام والخُبر والقطيف في الشرق والرياض في وسط شبه الجزيرة العربية، وفي منتصف السبعينات رسمت الحكومة مخططاً رئيساً على أمل تنسيق النمو للمدن الرئيسة، وكانت هناك محاولات للسيطرة على التنبؤ بزيادات العقار والتوسع الذي لا يمكن السيطرة عليه، وجاء تخطيط المدن لينادي بوضع خطط للمباني تعكس الثقافة الإسلامية للبلاد، وكان التفكير أن مثل تلك الجهود ستؤثر في المباني في القطاع الخاص وتمنح التوسع المستمر محور وأسلوب ذي معنى.

وضغط النمو على الخدمات في المدن وعلى المساكن المتوافرة، وكانت هناك أدلة أن نقص المساكن الذي كان حاداً خلال السبعينات قد أصبح زائداً عن الحاجة . وبسبب انخفاض الدخل من البترول في الثمانينات المبكرة، استجمعت وزارة الأشغال العامة والإسكان مجهوداتها لتوفير مجمعات سكنية للمجموعات ذات الدخل المنخفض والمتوسط، وحتى أواخر السبعينات كان التركيز حول بناء مجمعات كبيرة متعددة الوحدات، وبعد ذلك ركزت السياسة على بناء مبان مكتفية ذاتياً بخدماتها. وكانت زيادة مرافق الصرف الصحي والمياه للقرويين وسكان المدن من الأولويات الرئيسة في بداية الثمانينات، وأصبحت المهمة أكثر صعوبة بانتشار المستوطنات في

أنحاء البلاد وأيضاً بكبر حجم النمو السكاني في المدن، وشجعت القروض الحكومية بشروط ميسرة الكثيرين على بناء منازل خاصة بهم، حتى بعض البدو بدأوا في بناء منازل دائمة في ديارهم.

وحتى القرن العشرين عكس مجتمع المدن وظائف المدينة كمركز للصناعات الصغيرة والتجارة والمؤسسات الدينية، وكانت الكثافة السكانية في الحجاز وعسير والأحساء، وكان الحجاز محور مركزي لتجارة القوافل منذ ما قبل عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكانت المياه الجوفية موجودة وسمحت للاستيطان ببعض الكثافة، وكانت السيطرة السياسية بالرغم من السيادة التركية في يد الأسر التي تدعي أنها تنحدر من أصل النبي (صلى الله عليه وسلم).

وكانت مدن الحجاز عالمية نسبياً، حيث كان المسلمون الأجانب منذ قرون يهاجرون إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ويبقون فيهما للدراسة أو العمل أو مجرد الأمل في أن تدركهم المنية في تلك الأماكن المقدسة، وما زال أحفادهم يشكلون قسماً مهماً من سكان المدن، ولم يكن الحج سبباً في مجيء المسلمين من جميع أنحاء العالم إلى الحجاز فحسب بل أيضاً وسائل كسب العيش بعد إقامتهم هناك، وعمل الأجانب في التجارة أثناء الحج إما كمتعهدي تموين للبضائع أو كمرشدين. وكانوا يغتنمون فرصة معرفتهم بالحجاز ولغة بلادهم وعاداتهم في خدمة أبناء بلدانهم السابقة كمطوفين .

وكان تطور المدن أقل بكثير في نجد، فقد افتقدت المنطقة واحات كبيرة وكانت العلاقات بين البدو الرحل وسكان المدن متوازنة نسبياً، ففي بداية القرن العشرين كان سكان الرياض قرابة 8.000 نسمة وحائل قرابة 3.000 نسمة ومدن القصيم كحد أقصى 15.000 نسمة، ومثل الحجاز كانت مدن أواسط شبه الجزيرة العربية تمثل مركزاً للأنشطة التجارية والصناعية والزراعية، ونزعت المدن لتصبح المركز التجاري للمنطقة، وكان يوجد في نجد العديد من المدن الصغيرة التي تحيط بها القرى الزراعية والقبائل الرحل

والأراضي الرعوية، ومع أن تجارة الحجاز كانت أكثر عالمية واستحوذت على الاهتمام الأكثر، فقد تمتعت كل من الأحساء ونجد في أواخر القرن التاسع عشر بتجارة الخيول المزدهرة آنذاك التي يشتريها الجيش البريطاني الهندي.

وكونت القبائل أسس التنظيم السياسي والاقتصادي، وكان معظم سكان المدن يضم تجمعاً من العلماء وملاك الأراضي والتجار وجميعهم يتقاسمون مجتمعاً من المصالح، وبالرغم من أن مجيء آل سعود بدل من وضع القبائل إلا أن التغير السياسي الاقتصادي في المدن كان طفيفاً، وبمجيء آل سعود ازدهرت التجارة واستفاد العلماء من سيطرتهم على التعليم وقدرتهم على مراقبة السياسة العامة في مختلف القضايا.

وحولت زيادة السكان المعاصرة المدن إلى نقاط مركزية للتغيير الاجتماعي، فبالإضافة إلى الزيادة الكبيرة في سكان المدن فقد تم إيجاد مجموعات اجتماعية جديدة – الطلاب والبيروقراطيين والتكنوقراطيين والعمال الأجانب، وخلال طيلة الستينات والسبعينات خرجت المدارس الثانوية طلاباً درسوا في الخارج خاصة في الولايات المتحدة، وفي نفس الوقت نما التعليم ما بعد الثانوي المحلي بصورة فلكية ، وأصبح لدى المملكة فيالق معتبرة من الخبراء تم تدريبهم في مجال الدراسات الغربية وشكلوا مصدراً للبيروقراطية المتوسعة والقطاع الاقتصادي الحديث، وفي نفس الوقت استمر التوسع في التعليم العالي، ولاحظ المراقبون صراعاً بين الطلاب الذين تعلموا في المدارس الدينية التقليدية وأولئك الذين تعلموا في المؤسسات المدنية بالرغم من أن أفراد المجموعتين يعتنقون المذهب السلفي الوهابي، وكان الطلاب ورجال التعليم على حد سواء شغوفين باكتساب العلوم الغربية ولكن كما قال أحدهم "دون ترك قيمنا الدينية والثقافية"، وحتى الطلاب الذين نالوا تعليمهم في الخارج ظلوا عامة يساندون المحافظة على التقاليد والقيم، وأسهم التوسع التعليمي وازدياد أعداد الطلاب في تغيير

الإنسان في المجتمع، فقد أصبح أحفاد رعاة الإبل وغواصو اللؤلؤ والمزارعون الفقراء يدرسون الهندسة الكيميائية والإدارة الصناعية.

واستمرت العائلات المتخصصة في التجارة في أداء عمل رئيس في المعاملات المالية للمملكة، وكان ازدهارها مرتبط بصورة خاصة بآل سعود وبدخل البترول، واستفادت العائلات التجارية القديمة وأيضاً العائلات الجديدة في التجارة من الثروة الجديدة – في شكلْ عقود حكومية أو نتيجة للزيادة العامة في الطلب على البضائع المستوردة، وقد شارك في ذلك أعضاء العائلة المالكة والاستقراطيون النجديون والمتعلمون غير الدينيين ذوي المناصب (التكنوقراطيون). كما أتيحت فرصة كبيرة للتجار الأفراد ليؤدوا عمل الوسيط بين الحكومة والشركات العالمية التي ترغب في عمل تجاري في المملكة، وكسب التجار السعوديين عقود حكومية وبعد ذلك تعاقدوا من الباطن مع شركات أجنبية لتنفيذها، وبصورة أقل لعب كثير من المواطنين السعوديين دور الكفيل لتجار صغار من البلدان العربية المجاورة الذين يرغبون في إنشاء تجارة في المملكة لأن القانون يمنع امتلاك المنشآت التجارية بالكامل لغير السعوديين واستفاد الكثيرين من مختلف الأعمال التجارية الصغيرة مثل ميكانيكا السيارات والخياطة من هذه الترتيبات والأنظمة.

وغيّر التوسع السريع جغرافية القبيلة في المدن، وقوض النمو النظام القديم حيث كانت الأحياء السكنية مقسمة حسب الانتماءات القبلية، وسكن وسط العائلات الغنية الكبيرة عائلات غريبة وخفت الصلات التي كانت تربط بين النساء والأطفال من تلك الأسر الكبيرة، وعند بداية الثمانيات كانت هناك إشارات إلى تراجع ذلك حيث بدأت بعض العائلات في التجمع من جديد في مجمعات سكنية يكون فيها لكل أسرة منزل ولكن المجمع محاط بجدار خارجي واحد.

وفي بداية السبعينات كان هناك أقل من 200.000 عامل متعاقد وكانوا ممركزين في محبط كل من جدة والدمام ، وكان من السهل نسبياً عزل السكان المحليين من تأثير الأجانب وكان وجود الأجانب لا يحس به إلا قليلاً، وعند نهاية السبعينات وبداية الثمانينات أدى تكاثر المتعاقدين وانتشارهم إلى صعوبة السيطرة على ذلك، وفي بداية عام 1994م كان هناك أكثر من (4) ملايين عامل أجنبي في المملكة العربية السعودية.

ونما عدد العمال الأجانب بنسبة 7% تقريباً في السبعينات – أكبر من ضعف نمو نسبة القوى العاملة السعودية، وعند بداية الثمانينات فاق الأجانب عدد السعوديين في القوى العاملة بنسبة اثنين إلى واحد تقريباً، وظلت أكثر من نصف القوى العاملة السعودية تسهم بجزء بسيط في الناتج المحلي الإجمالي ، وكان العمال الأجانب مهيمنين بصورة حيوية في مجالات الإنشاءات وخدمات الطاقة والتجارة والمالية والخدمات العامة، وتنوعت مستوياتهم من مهنيين محترفين إلى عمال غير مهرة وشبه مهرة، وكان لا يمكن التفكير في تشغيل ونمو الاقتصاد دونهم.

ومعظم العمال، من البلدان العربية المجاورة، وثلاثة أرباع المتعاقدين تقريباً من المسلمين، والتطور الجديد ازدياد أهمية الآسيويين – الهنود والباكستانيين والفلبينين.

الكويت :

تمثل الكويت أفضل نموذج لاقتصاد النفط وما ترتب عليه من التغيير المنظور. إن توطين الكثير من المجموعات الاجتماعية في العهد الماضي لم تنتج فقط من موجات الهجرة والتي مثلت في عام 1984م أكثر من 60% من السكان لكن أيضاً نتجت من سياسة الحكومة المدروسة. خلال الخمسينات اشترت الحكومة معظم الأراضي في مدينة الكويت بسعر غال جداً. وبدأت الحكومة مباشرة في بناء أحياء سكنية مخططة وفق المواصفات الحديثة على محيط المدينة وسمحت ببناء الأحياء غير المخططة أيضاً.

أن سياسة تمليك الأسر منازل جديدة نتج عنها التمييز بين العناصر الكويتية وغير الكويتية للسكان. الأولى تسكن الأحياء جيدة الإعداد والتخطيط والأخيرة تسكن الأحياء غير المرغوبة ومدن الأكواخ.

بالإضافة إلى عشيرة آل صباح الحاكمة، والتي يرجع نسبها إلى أعضاء من اتحاد عنزة في القرن الثامن عشر، هناك أيضاً قرابة مائة وثمانين أسرة بارزة تسمى الأصليين وهذه الأسر أيضاً تزعم السيادة الاجتماعية وذلك لأنهم ينتسبون إلى قبائل أصيلة هذه الأسر تستخدم أداة التعريف (أل) قبل أسمائهم.

أكثر من 90% من مواطني الكويت سُنيون، كبقية المسلمين غير الكويتيين في البلد. الديانات الأخرى المسموح بها في الدولة تشمل الشيعة الإيرانية، وبعض الشيعة العراقيين والمسيحية الكاثولوكية والبروتستانية والرومانية التي يمارسها الأوروبيون الموظفون في القطر. رغم هذه الخلفية التاريخية، إلا أن التغيير كان علامة فارقة للحياة المعاصرة في الكويت.

النمو الاجتماعي السريع أضعف العديد من العلاقات الاجتماعية التي كانت في الماضي تدعم بشدة المجتمع القبلي. فنمو المجمعات السكنية الكويتية والمدن الصناعية في الجنوب الشرقي عززت من الشخصية الحضرية التقليدية للبلد ، وأدت إلى إضعاف الروابط القبلية بشدة خاصة في المدن، أما الصحراء فلا زال يعيش فيها بعض من السكان المتفرقين. كما أن العلاقات الطبقية تغيرت أيضاً. والعامل الوطني غير المدرب اختفى من على الخارطة وحل محله الأجنبي.وبرزت الطبقية والوعي الطبقي كعناصر جديدة في المجتمع الكويتي. وقد أسهم نمو النظام التعليمي المجلني الشامل وتطوره في إزالة الحواجز الاجتماعية للوظائف العادية الحكومية أمام الكويتيين ليشغلوها.

إن سياسة الحكومة بإعطاء أفضلية للمواطنين على حساب غير المواطنين في المنافسة على الوظائف أنتج وضعاً لا يجد فيه المواطنون غير

المؤهلين صعوبة في الحصول على الوظيفة مرغوبة يتقاضى عليها أجر أفضل موازنة بغير الكويتي الذي يقوم بنفس العمل. ويرى بعض المراقبين أن الازدهار الاقتصادي حطم استعداد الكويتيين لقبول الوظائف غير المرغوبة أو حتى البقاء في المدرسة إذا ثبتت صعوبتها وعدم ملاءمتها.

نسبة لأن الكويتيين يتمتعون بميزة احتكار الفرص التجارية لأنفسهم فقد كونوا ثروات كبيرة وحققوا أرباحاً هائلة من وراء ذلك. وتلك الثروات تكونت من جراء العمل في مجال التوريد والعقارات وسوق المال وعدد من المجالات الأخرى.

إن برنامج الحكومة لشراء الأراضي في الخمسينيات كان من أحد أهدافه وضع مقدار كبير من رأس المال في أيدي مالكي المباني. ولقد أدى ذلك بشكل رئيس إلى استفادة أسر التجار الكويتيين الذين كانوا يسيطرون على الاقتصاد في حقبة ما قبل النفط، كما استفادت أسر التجار من الفرص الاستثمارية غير المسبوقة التي جاءت بعد ذلك مباشرة. ومن الأسر التي حققت نجاحاً كبيراً في هذا المجال أسرة آل غانم الذين مولوا شركتهم الناجحة والتي كانت تقليدية ثم أصبحت شركة حديثة متعددة الجنسيات بأرصدة (أوراق مالية، سندات وغيرها) مكنتها من دخول سوق المشاريع في الولايات المتحدة والحصول على تنفيذ مشاريع فيها وفي عدد من الأقطار الأخرى.

ومع أن مثل هذه الأسر قد كونت ثروة هائلة وكانت ذات نفوذ على المسرح العالمي إلا أن مكانتها قد تراجعت نسبياً أمام تعاظم نفوذ الأسرة الحاكمة داخلياً وخارجياً حيث تنامى بشكل هائل بسبب سيطرتها على البترول وعائداته الضخمة. بالإضافة إلى هذه الأسر المستفيدة، هناك العديد من الكويتيين الطموحين المنحدرين من أصول اجتماعية متوسطة استطاعوا تحقيق كثير من النجاح.

وعلى الرغم من أن العلاقات الشخصية ما زالت تمثل عاملاً مهماً في الحياة التجارية إلا أن القدرة الذاتية للشخص زادت أهميتها في مجال التوظيف الحكومي الذي تطور بواسطة الاقتصاد الكويتي.

والتغيير المهم الذي عكس التحديث المتنامي في الكويت هو النظرة الجديدة للنساء، اللاتي أصبحن متحررات من الكثير من قيود العرف والتقاليد الاجتماعية . ومع أنهن لا يملكن بعد حق التصويت في الانتخابات إلا أنهن يتلقين تعليمهن وتدريبهن ليعملن كطبيبات ومعلمات ومذيعات وممثلات.

ومع أن الشباب الكويتي هم المستفيدون من التعليم الحديث ولديهم معلومات جيدة عن العالم الخارجي أكثر من أبائهم إلا إنهم لا يعرفون أي شيء إلا البحبوحة التي يعيشون فيها وهم أقل قدرة على فهم نظام الحكم الأبوي الكاسح. وعلى طول البلاد وعرضها ، تداعت أسوار العزل والإقليمية على يد السيارات والراديوهات والتلفزيونات.

<u>البحرين</u>

تعد البحرين في كثير من النواحي أكثر تطوراً من بقية دول الخليج من الناحية الاجتماعية.

سبقت البحرين دول الخليج الأخرى بجيل كامل في مجال التعليم، والعديد من الأسر البحرينية في جيلها الثالث من خريجي الكليات .ومع أن البحرين أول دولة خليجية تكتشف النفط، إلا أنه بد منذ الوهلة الأولى أن الكمية المكتشفة صغيرة نسبياً مما نتج عنه العمل مبكراً لبناء اقتصاد متنوع استطاع أن يمتص بصورة جيدة صدمة خيبة الأمل الاقتصادية الناجمة من عدم اكتشاف البترول بكميات تجارية . وفي فترة ما قبل النفط كان لدى البحرين هرم اجتماعي محدد يمتد من أعلى إلى أسفل يتكون من قادة الشيوخ إلى قادة التجار وأصحاب المحلات التجارية الصغيرة والمزارعين والعبيد السابقين والمهاجرين الذين كانوا يعملون في صيد اللؤلؤ وصيد الأسماك. لكن بالتوسع التدريجي في التعليم الذي صاحب التحديث، نمت

طبقة متوسطة تتمثل في موظفي الدواوين الحكومية، وموظفي البنوك، والمعلمين، والطلاب.

في منتصف السبعينات كانت تقف عائلة آل خليفة وهي الأسرة الحاكمة على قمة هرم النفوذ والتأثير يليها القادة الكبار للتجار وعامة الشعب. قبل الحرب العالمية الثانية كانت مجموعة تقتصر بصفة أساسية على تجار اللؤلؤ، لكن بعد ذلك ضمت جميع التجار الكبار .

ولكون البحرين تختلف عن بلدان الخليج العربية الأخرى، حيث إن معظم سكانها شيعيون، فإن الشيعة لهم محاكمهم القضائية الخاصة كما أن قادة المجموعات الدينية يشغلون الوظائف الأكثر أهمية موازنة بأي بلدٍ آخر من بلدان الخليج.

الأسرة الحاكمة سُنية تتبع المذهب المالكي ومعظم القضاة والوظائف الحكومية الأخرى تتولاها تقليدياً هذه المجموعة. الشيعة الذين كانوا في السابق يعملون بصفة أساسية كمزارعين وصائدي أسماك بدءوا أيضاً في الانخراط في الطبقة العاملة الحضرية بأعداد كبيرة، إلا أن هناك القليل جداً من تجار الشيعة الأغنياء وهم في الغالب من الذين هاجرت أسرهم من إيران منذ جيل أو جيلين.

سكان البحرين مستقرون حضريون، وأكثر من 50% منهم يعيشون في المنامة، ويشكل الأجانب أكثر من 30% من السكان وباستثناء العدد الصغير نسبياً من الأمريكان والبريطانيين في الوظائف الفنية والإدارية عالية المستوى في صناعة النفط وفي المجالات الأخرى، يتركز الأجانب في الوظائف العمالية ومجال الخدمات.

ونظراً لكون برامج البحرين التعليمية تعد من البرامج المتطورة والقوية فقد كانت لدى البحرين لسنوات عديدة فائضاً من الموظفين. ولتقليل البطالة بين الشباب البحريني الذين ينخرطون في سوق التوظيف لأول مرة تبنت الحكومة سياسة إحلال المواطنين البحرينيين محل الموظفين الأجانب.

تشكل النساء 6% من القوى العاملة وهن يعملن بصفة أساسية في وظائف الطب، التعليم، السكرتارية، محاسبة، هندسة، خدمات. وغالباً تتلقى المرأة من الطبقات العليا والمتوسطة تعليماً جامعياً.

قطـــــــر

إن أسرة آل ثاني تسيطر على قطر ليس فقط بنفوذها وشهرتها الاجتماعية بل تسيطر عليها أيضاً بحجمها الكبير . ويقدر عدد فراد أسرة آل ثاني بما يقرب من 22.000 فرد يتقلد 500 منهم لقب شيخ . ويقدر سكان قطر الكلي تقريباً بأنه يتراوح ما بين 350.000–390.000.

وعلى عكس مدن البحرين التي كانت مركزاً لتجارة اللؤلؤ وبناء السفن قبل حقبة النفط فإن الدوحة – العاصمة والمدينة الأكبر – كانت فقط مجرد قرية لصيد الأسماك منسية ليس لها أي مزايا أو قدرات تمكنها من سبر المياه العميقة كما كانت تعوزها طرق وأساليب التجارة التقليدية.

ولقد تحولت الدوحة إلى مدينة حديثة بعد اكتشاف النفط الخام وإنتاجه في قطر في عام 1949م . ومنذ ذلك الوقت بدأت الدوحة، تنعم بالطرق والمباني الجديدة، وخدمات الكهرباء والمياه وأسباب الراحة الحديثة الأخرى. كما بدأ النشاط التجاري يتوسع بصورة كبيرة. ومع أنه لا يوجد تقليد تجاري قبل اكتشاف النفط إلا أن عدداً من القطريين الوطنيين برزوا كتجار كبار لكن غالبية التجار الصغار والمتوسطين من الأجانب خصوصاً ذوي الأصول الإيرانية، حيث يشكل الأجانب غالبية القوى العاملة. في الماضي كان القطريون يكسبون عيشهم عن طريق صيد اللؤلؤ، والأسماك، وبالرعي المتنقل، وبالزراعة الضيقة، إلا أنه بمجرد اكتشاف النفط اختفت هذه المهن بسرعة من قاموس القوى العاملة، وأدى مجيء الثراء النفطي إلى استقدام الأجانب لتأدية الأعمال التي يعدها المواطنون غير مربحة وغير محترمة. الباكستانيون والهنود المسلمون والهندوس يشكلون غالبية الأجانب على الرغم من وجود أعداد من الفلسطينيين وأعداد قليلة من المصريين.

السكان الوطنيون مسلمون سُنيون وهابيون وهم يتبعون المذهب الحنبلي.

الإمارات العربية المتحدة

هي اتحاد لسبعة بلدان صغيرة . اثنتان منهما أبوظبي ، ودبي شهدتا تطوراً سريعاً في بداية السبعينيات. ولقد عمل إنتاج النفط في الشارقة الذي بدأ في منتصف عام 1974م وتدفق عائداته بالإضافة إلى قرب موقعها من دبي على إحداث تغيير مهم خصوصاً في بنيتها الأساسية. في منتصف الثمانينيات شكك المراقبون الأجانب في وجود إمكانية كميات ضخمة من النفط في البلدان الأربعة الأخرى رأس الخيمة، عجمان، أم القوين، والفجيرة. وباستثناء رأس الخيمة فإن البلدان الثلاث الأخرى صغيرات الحجم لدرجة أن أحد الخبراء وصفها بأنها (ولايات قروية). وبالنسبة لرأس الخيمة والفجيرة فقد أصبحتا حالياً منتجعات شعبية.

سكان عجمان دبي وأم القوين جميعهم مستقرون تقريباً، ما بين 15-95% من سكان البلدان المتبقية مستقرون، ويشكل البدو الجزء الباقي. تقليدياً السكان الساحليون يمارسون مهن البحارة وصيد اللؤلؤ والتجارة، أما سكان الداخل يعملون في حرف الرعي والزراعة كمربي إبل ومزارعين. ومع أن سكان الإمارات المتحدة ككل قد نموا بصورة درامية نتيجة لهجرة وتدفق العمالة الأجنبية فإن العمال الأجانب غير موزعين بالتساوي بين المشيخات.

وبنظرة فاحصة للأوضاع في أمارة أبوظبي يتضح أن مجتمع أبو ظبي يجسد بوضوح النموذج التقليدي لمجتمعات دول الخليج العربية . فعند منتصف الخمسينات من هذا القرن كان هناك ثلاثة أنواع من السكان كل واحد منها منخرط في نشاطات اقتصادية بدائية منذ أمد طويل. فمستوطنو الداخل والسواحل منخرطون بصفة أساسية في صيد الأسماك واللؤلؤ والتجارة، وسكان الواحات يعتمدون على الزراعة البدائية، والبدو الرحل يتجولون بحثاً عن المرعى والمياه. وفي الستينيات وخاصة بعد اكتشاف

النفط وتطور صناعته، حدث تحول حاد في النمـــط الاجتمـــاعي. فســكان أبوظبي تحولوا تدريجياً إلى الأعمال الوظيفية في مجال صناعة النفط والبناء والخدمات. وتكسرت الحياة القبلية وبدأت تتلاشى في مواجهة تزايد الزخـــم الاجتماعي ونمو العائدات النفطية وبرامج الدولة في مجال التعليم والصحـــة والإسكان. وعلى أي حال، تتميز أبو ظبي بوجود مجموعات أكثر من القبائل موازنة بتلك الموجودة في غيرها من البلدان الأخرى في دولـــة الإمـــارات. والمجموعات القبيلية هذه تستوطن الواحات الداخلية ويوجد من بينهم عـــدد من البدو الرحل.

وأهم مجموعات قبائل أبوظبي هم بنو ياس وهي عشائر يربط بينـــها اتحاد مكون من عدة عشائر من بينها عشيرة آل نهيان الحاكمـــة. وترجـــع أصول آل نهيان إلى نشأتهم في واحة اليوى (الجوى) كما إنـــهم اســـتوطنوا العين في واحة البريمي منذ القرن الثامن عشر. جزء من هذه القبيلة هـــاجر من اليوى إلى الساحل في سبعينيات القرن الثامن عشر في حين بقي معظـــم أعضائها هناك. وعندما بدأ إنتاج النفط في ستينيات هذا القرن بدأت البقيـــة الباقية من أفراد القبيلة في الانتقال من اليوى إلى أبوظبي العاصمة منذ أمـــدٍ طويل. هذا الانتقال نتج عنه ظاهرة غير طبيعية بالنسبة للقبائل الرئيسة مـــن حيث تغيير بيئتها الجغرافية وهويتها الأساسية. ومع أن نفوذ آل نهيان ظـــل قوياً في الداخل إلا أن عشيرتهم ظلت متركزة على الساحل.

ومن المجموعات القبلية المهمة الأخرى مجموعة الظواهر وهـــي تحالف مكون من عدة قبائل تسكن العين ومجموعة العوامر الذين يتواجـدون غرب واحة البريمي وجنوب الضفير. ولرغبة الحكومة في اســـتقرار بقيـــة البدو الرحل أنشأت مدينة جديدة قرب اليوى لهذا الغرض.

موازنة بالأسر الحاكمة، فإن تجار أبوظبي ليسوا بطبقة قوية، علـــى الرغم من أنهم أصبحوا أغنياء جداً. ومواطنو أبوظبي يعملون في صناعـــة النفط، كما يعمل بعض المواطنين في القطاعات الحديثة. نتيجة لذلك تطورت

الطبقة المتوسطة، وتقلد أبناؤها من خريجي الجامعات وظائف النخبة، أما بقية الطبقة العاملة من ذوي الوظائف المتدنية فقد تركت للوافدين من العمالة العربية والأجانب.

أما دبي فهي محور تجاري وأكبر مدينة في الإمارات العربية المتحدة، وهي واحدة من أكثر موانئ الخليج ازدهاراً، وسوقاً لرجال القبائل من عُمان. تم اكتشاف النفط فيها في شهر يونيو عام 1966م. ويعود الفضل لوجود دبي كمدينة دائمة ومركز تجاري متطور إلى حقيقة أنها كانت الميناء الوحيد الذي يتمتع بالمياه العميقة على طول الساحل.

وتسيطر أسرة آل مكتوم الحاكمة، والتي تنتمي إلى فخذ آل أبوفلاسة من بني ياس، سيطرة تامة على تجارة الإمارة. وحاكم دبي هو قائد التجار، وهو أكبر مساهم في شركات الهاتف والكهرباء، ومالك لأساطيل من السفن والعديد من العقارات. التجار الذين لا ينتمون للأسرة الحاكمة لهم أثر بارز أيضاً في المجتمع، كما أن الانفتاح الاقتصادي الذي تتبعه دبي سهل للكثير من الوافدين أن يعملوا بالتجارة لدرجة أن أصبح عدد هؤلاء الوافدين يفوق كثيراً عدد المواطنين في الإمارات الأخرى.

والإمارات الأخرى مع أنها صغيرة إلا أن ما شهدته من تغير اجتماعي كان أقل موازنة بأبو ظبي ودبي. وتعد الشارقة صاحبة أكبر نسبة من عدد خريجي الجامعات في الإمارات العربية المتحدة وذلك نتيجة لتأثير تواجد مقر قيادة القوات البريطانيه فيها . ونتيجة لتزايد هؤلاء الخريجين فقد شهدت بداية السبعينيات، صعوبة في توظيف المتعلمين من مواطني الشارقة لكن نتيجة لازدهار الاقتصاد فقد تم التوظيف الكامل للمواطنين.

ولكون القبيلة شيء مهم في منطقة الخليج، فقد كان من الصعوبة بمكان على الإمارات الأصغر أن تستجيب للتغيير السريع لذلك شهدت تحولاً اجتماعياً طفيفاً مما جعلها تحتفظ بشخصيتها القبلية، رغم الانخراط المتزايد لشبابهم في المؤسسات العامة والخاصة كتكنوقراطيين وقوى عاملة.

وتعد فروع قبائل منطقة الخليج أقل ارتباطاً بالكيانات السياسية الحديثة في أقطار الخليج. وعلى سبيل المثال فإن الفروع المتعددة لقبيلة القواسم تحكم في الشارقة، ورأس الخيمة، وذلك بالرغم أنهم في الشارقة قبيلة كبيرة، وفي رأس الخيمة قبيلة صغيرة نسبياً. ومع أن حكام الإمارات الأخرى ينتمون إلى القبائل الأكثر أهمية في دولهم، إلا أن هذه القبائل مشتتة بعض الشيء بين الكيانات السياسية الأخرى.

غالبية المواطنين سنيون من أصحاب المذهب المالكي. كما أن قرابة نصف السكان ينتمون إلى القبائل التي تتواجد على حدود المملكة العربية السعودية وعُمان وأغلب هذه القبائل من السنيين الوهابيين. كما يوجد أيضاً تركزاً للسُنيين الذين ينتمون للمذهب الشافعي في الفجيرة.

عُمان

تمتد عُمان على امتداد زاوية الجزيرة العربية، الواقعة بين الخليج وبحر العرب. وتشترك في بعض ملامحها من جهة الشمال مع دولة الإمارات ومع اليمن من جهة الغرب. وتمتاز عُمان تقليداً بالانعزالية العتيدة والمحلية، وندرة المعلومات عن أعراق قبائلها الكثيرة . ومن ناحية تقليدية تعد القبيلة والأسرة المؤسستين السائدتين فيما يتعلق بالانتماء والولاء ، ولا يوجد مؤسسات أو تنظيمات أعلى تربط هذه المجموعات المتفاوتة في بوتقة سكانية واحدة. وسكان هذا الإقليم ينتمون إلى شرائح اجتماعية تمتد من أبناء قاطني الموانئ ومدن الشتات إلى رجال القبائل المعزولين الذين يتحدثون بلغات بدائية.

ومع أن العرب هم العنصر السكاني المسيطر، إلا أن هناك أعداداً مهمةً من غير العرب يقطنون في المدن الساحلية القريبة من مسقط كما يسود العنصر غير العربي في مطرح.

ومن العناصر غير العربية في عُمان البولشيون وهم من القبائل الأسيوية كانوا في البداية يستوطنون بصفة أساسية في ميناء جوادار على

الساحل الباكستاني عندما كان الميناء خاضعاً لحكم السلطان العماني. ثم بدأ بعضهم يتوافد على هذا البلد في أول الأمر كمرتزقة للعمل في خدمة السلطان ، وما زال العديد منهم في خدمة السلطان حتى هذه الأيام ، أما البقية الباقية منهم فتعمل في مجال الوظائف البحرية على طول الساحل. والقليل جداً منهم استوطنوا في المدن الداخلية وامتزجوا بالعرب. وبالإضافة إلى البلوشيين يوجد في مسقط و مطرح عدد كبير أيضاً من الهنود المسلمين والهندوس، الذين تتحدر سلالتهم من التجار الأوائل الذين هاجروا للسلطنة أثناء أوج مجدها كإمبراطورية بحرية . أما بالنسبة لتواجد أقلية كبيرة من الزنوج فإنه من المحتمل أن يكون تواجدها ناجماً من كون مسقط كانت ولقرون عديدة مركزاً تجارياً مهماً لتجارة الرقيق، كما أنه مما يلحظ حالياً أن العديد من الزنوج ما يزال يعملون في خدمة السلطان وشيوخ القبائل والوجهاء الآخرين، في حين يعمل الزنوج الآخرون في صيد الأسماك، واللؤلؤ.

وطبقاً للخارطة السكانية في عُمان فإن الأغلبية العربية تنقسم إلى جناحين قبليين أساسيين: الجناح المنحدر من المستوطنين العرب الأوائل، وهم يتميزون قبل القرن الثامن عشر بألقاب متعددة مثل اليمانيين ، والأزديين والقحطانيين، أما في القرن الثامن عشر وما بعده فيعرفون بالحناويين. والجناح الثاني فهم ينحدرون من سلالة الموجة الثانية من المستوطنين العرب المعروفين قبل القرن الثامن عشر بالنزاريين والعدنانيين، أما في القرن الثامن عشر وما بعده فقد عرفوا بالجعفريين . والعُمانيون الأوائل ينحدرون من أصل جنوبي أو يمني، بينما العُمانيون المتأخرون فقد قدموا من الأجزاء الشمالية والوسطى للجزيرة العربية. ومنذ قرابة ألف وخمسمائة سنة كان هذان الجناحان في صراع دائم، وما زال هذا الصراع أهم عامل في السياسات الداخلية وذلك على الرغم من مرور العديد

من القرون وحدوث كثير من التمازج، بحيث أصبحت حتى القرية ممزقة بين المجموعات الفرعية للقبائل المرتبطة بالأجنحة المتصارعة.

ومع أن الأسرة الحاكمة في عُمان والغالبية من العُمانيين العاديين مسلمون وينتمون إلى الحركة الأباضية ، فقد يكون من المفيد توضيح أنه نتيجة للتصدع الحناوي- الجعفري فإن الحناويين ورغم عراقتهم في عُمان إلا أنهم اليوم ليسوا أكثر من مجرد فرقة دينية في عُمان. والحناويون مرتبطون بشدة بالحركة الأباضية، والتمسك بتعاليمها التي كانت تعد أهم سمات الخصوصية العُمانية لقرون عديدة. أما الجعفريون فإنه على الرغم من أنهم منتسبون في الغالب إلى الأباضية، إلا أنهم كانوا أكثر عرضة للتأثيرات الخارجية. وعليه فإنه يوجد العديد من القبائل الجعفرية الذين تخلوا عن الأباضية وانتموا لأحد المذاهب السُنية، ومنها الوهابية المتركزة تقليدياً في المملكة العربية السعودية.

وظلت القبلية في عُمان أهم مصدر للهوية الاجتماعية بالنسبة للغالبية العظمى من الناس. وبالنسبة لسجلات القبائل وفروع القبائل الموجودة في عُمان، فقد وجد أن قبائل آلبوسعيد وهي القبيلة الحاكمة تعد من أهم قبائل عُمان ، تليها قبيلة بنو جعفر، ثم بنو عامر، وقبيلة هوازن داخل عُمان. والسينون الشُحوح والحبوس في شبه جزيرة موسندام ، والجنابح في جزيرة مسيرة والدورو في الظهيرة في الشمال، والمهرة في ظفار قرب حدود اليمن وبني الحارث في الشرقية .

ومن المجموعات العرقية المثيرة للاهتمام قبيلتا السننة الشحوح والكرا اللتان تتكلمان لغة سامية غير العربية ويبدو انهما ينحدران من سكان بدائيين أزيحوا بوساطة العرب الغزاة . والسُنني الشحوح والكرا هم قبائل شبه رحّالة ينتقلون كل سنة بين أماكن الإقامة الجبلية في الشتاء والأماكن الساحلية في الصيف . وعندما يقطنون في المستوطنات الشتوية

تكون هذه المستوطنات مأهولة بأسرة واحدة ممتدة لكل مستوطنة، أما المستوطنات الصيفية فإنها تكون مأهولة بعدة أسر ممتدة وذات قربى.

ويشعر أفراد قبيلة الكرا والمجموعات الأخرى من أهل منطقة ظفار بارتباطهم أكثر بالمجموعات المحلية أو القبائل اليمنية (عدن) أكثر من ارتباطهم بأقاليم الشرق وذلك على خلاف القاطنين في مناطق المدن الساحلية الذين يولون الارتباط ببقية القطر أهمية أكثر.

وتمارس القبائل بصورة جوهرية سيطرتها السياسية القوية على المدن عبر كل البلاد، ويتلقى قادة القبائل الكثير من المساعدات والمكافآت للتوقف عن الغارات على بعض المدن أو القوافل. كما يدفع المسافرون والتجار جزية للشيوخ المحليين عندما يعبرون أراضيهم . ويستخدم شيوخ القبائل بعضاً من العائد المادي الذي يحصلون عليه كمحفز يعطى للأسر النافذة في القبيلة ليضمن مساعدتهم على ممارسة السيطرة على أفرع قبائلهم الممتدة بعيداً. وبدخول التقنية ووسائل النقل الحديثة إلى البلاد في منتصف السبعينيات أصبحت المدن أكثر غنى وأصبح الوصول إلى الريف سهلاً وممكناً مما نتج عنه تقلص للنفوذ القبلي. كما إن تطور صناعة النفط والقوة المتزايدة للحكومة المركزية عجلت بتقليص هذا النفوذ القبلي. ونتيجة لتطور مشاريع التنمية والمنظمات البيروقراطية فقد اتجهت القبائل أكثر نحو الاهتمامات الوطنية. فبدأت الهجرات المهمة من مناطق القبائل إلى المدن، والاختلافات الثقافية الحادة بدأت أيضاً في التقلص بين سكان الداخل وسكان الساحل وانحسر نفوذ رؤساء القبائل في الأمور ذات الصلة باختصاصاتهم المحلية . ووفر التعليم أداة طبيعية لتطوير الولاء ليتجاوز ولاء الأسرة والقبيلة.

وعلى المستوى الوطني كانت أهم طبقة اجتماعية هي الأسرة الحاكمة. القليل جداً من الوافدين خصوصاً البريطانيون يشغلون وظائف مهمة في الجيش، وصناعة النفط وبرامج التنمية ويتمتعون برضى السلطان

وتفضيله بهم . كما يوجد 12 من الأسر التجارية العريقة وتشكل الصفوة التجارية وتحتل في ترتيب الطبقات الاجتماعي المركز الثاني بعد الأسرة الحاكمة . وهذه الأسر تتحكم في امتيازات الاستيراد ولها نشاط بارز في العديد من الاستثمارات غير البترول. ويكاد يكون كل أفراد هذه الأسر التجارية ينحدرون من أنساب أجنبية، وبصفة أساسية إيرانيون وهنود وباكستانيون. وليس هناك أي أسرة من الأسر التجارية العشرة ينتسب إلى الطريقة الأباضية، حيث إن الغالبية منهم يعتنقون مذهب الشيعة كما بعض هذه الأسر من السُنيين والهندوس.

والمجموعة الحضرية الصغيرة المتنامية الأهمية تتكون من المثقفين والمتعلمين. الذين بدءوا يتواجدون في بداية السبعينات بعد تخرج عدد منهم من الجامعات الأجنبية كما كان يدرس عدد آخر في المدارس الثانوية في أفريقيا وعدن وبقية دول العالم. ومنذ منتصف الثمانينيات توسعت هذه المجموعة بصورة كبيرة وقد وجد هؤلاء الأشخاص أنفسهم في صراع مع رجال دين الطريقة الأباضية. كما يشكل العبيد السابقين للسلطان الذين يصل عددهم إلى ألفين فريقاً ذو أهمية حيث ظل الكثيرون منهم في خدمة السلطان ويتمتعوا بعلاقات قوية في القصر.

ويتركز الوافدون من الأجانب والأقليات الأخرى في مينائي مسقط ومطرح . ويشكل الهنود والباكستانيون والبلوش الأقليات المهمة بين الوافدين. ويعمل الهنود والباكستانيون في الغالب في أنشطة التجارة والحرف اليدوية . ويلتحق بعضهم بالعمل في الجيش والأعمال الحكومية. ويعمل البلوشيون بصفة أساسية كجنود ومزارعين وعمال عاديون وصائدو أسماك. الجالية الهندية تتضمن مسيحيين وسيخاً . ويعمل المسيحيون بصفة أساسية في الوظائف المكتبية أما السيخ فإنهم يعملون في الوظائف المهنية والحرفية وفي بعض أعمال الخدمات التجارية.